يومها الرابع

المأساة تلف لبنان

في هذا القبر الواسع تنتظر جوليا أمّها

قاسم س. قاسم

افترقت جوليا محمد الحاج عن والدتها قسراً. الطفلة ابنة السنتين التي أمضت ثلاثة أيام في غرفة الموت الباردة في مستشفى بيروت الحكومي، خرجت أمس لتسبق والديها إلى مثواهم الأخير. عادت جوليا وحيدة لتنتظر والدتها، رنا يوسف الحركة، ووالدها محمد الحاج، اللذين لم يُعثر عليهما بعد من بين ضحايا الطائرة الإثيوبية المنكوبة. هكذا، تسلّمت عائلة الوالدة جثمانها من أمام المستشفى لتحملها إلى منزل جدتها، زائرة للمرة الأخيرة، في منطقة الأوزاعي. هناك، كانت الجدة منى في انتظار حفيدتها، فالجدات يقمن مقام الأمهات في غيابهن. تدخل جوليا التي كانت لا تزال تتعلم المشي، على عكس كل المرات التي كانت تأتي فيها «مدبدبة» على أرض المنزل، مرفوعة على الأكف. وفي صدر الصالون، وضعوها «بملابسها الجديدة» الخضراء، بين نسوة بالسواد من جهة، وألعابها التي لم تهنأ بها من جهة أخرى. لا تطيل الطفلة البقاء في منزل جدتها، فمثواها الأخير قد فغر فاه وهو في انتظارها. ينطلق الموكب الذي شارك فيه النائب أيوب حميد ممثلاً الرؤساء الثلاثة والنائب علي عمار ورئيس بلدية برج البراجنة محمد الحركة، من منطقة الأوزاعي. يصل الخبر إلى آل الحركة في منطقة المنشية برج البراجنة. تقفل أغلب المحال التجارية أبوابها. اليوم لن يسأل أصحاب المحال «مين المتوفى وابن مين»، فالطفلة أصبحت أشهر من نار على علم. يصل الجسد الصغير محمولاً على الأكف إلى باب جبانة الرادوف. تدخل جوليا، تمرّ بقرب قبر بدا أنه أكبر من حجم جسدها الصغير. تسأل حولك فيقال إن القبر حفر واسعاً لترافقها «الماما»، التي لا شك في أنها ستنضم إلى ابنتها، في القبر نفسه. فالصغيرة أصغر من أن تترك وحدها. هكذا، خيّم الصمت على الحضور في

> كانت الجدة في انتظار حفيدتها، فالجدات يقمن مقام الأمهات

الجبانة، صمت لم يكسره سوى التكبير والصلوات وزقزقة العصافير على شجر الصنوبر الذي ظلّل قبر الطفلة. خالاتها أدركن أن ما يعشنه حقيقي. بعد قليل ستنام جوليا، ومع غيابها لن ينتظرن عودتها مع والدتها في الصيف المقبل. يرتفع صوت أنينهن، «رحتي بكير يا جوليا، يا حبيبة قلب خالتك»، تهمس إحداهن. أخرى ترمي وجهها بين كفيّها لتمسح بهدوء دمعاً ظلت عيناها تذرفه لثلاثة أيام. أما الرجال، فوقفوا بعيداً، تأمّلوا كفن الطفلة المحمول بصمت. آخرون رموا بعض الورود في لحدها، عساهم يخبّئون بذلك ترابه الأحمر. يقترب الجميع من الجسد المسجى أمامهم، يصلون عليه، ثم يحملونه مجدداً بهدوء كأنهم لا يريدون إيقاظ «الأميرة النائمة»، يضعونه بالقرب من لحدها، ينزع كفن «الشهيدة جوليا محمد الحاج»، كما كتب عليه. تنزل جوليا إلى بيتها الجديد. يخرج المعزّون من الجبانة. بقي خال الفتاة، محمد، واقفاً للحظات بالقرب من حافة القبر. الرجل كان قد خسر ابنته منذ فترة بمرض عضال، ويعرف معنى أن يفقد المرء عزيزاً. ينظر إلى حفّار القبور كيف يهيل التراب عليها، ففي هذه الحفرة دفنت ابنة أخته، وستنضم إليها أخته رنا، لاحقاً. ينتظر محمد انتهاءه من تمسيد التراب، يحمل أكاليل ورد من رئيس الجمهورية العماد ميشال سليمان، ورئيس مجلس الوزراء سعد الحريري، وقائد الجيش العماد جان قهوجي، وقائد الدرك أنطوان شكور، وقائد قوى الأمن الداخلي اللواء أشرف ريفي. يقبّل بعض أوراق الورد ثم يضعه بخشوع فوق قبرها، لينسحب كمن طبع قبلة النوم على خد ابنة أخته. عاد الجميع إلى منطقة الأوزاعي لتقبّل التعازي. هناك ملأ صوت تلاوة الآيات القرآنية فضاء المنطقة الهادئة. صوت لم يكسره سوى تكسّر موج اليمّ الأزرق على صخور الشاطئ وهدير طائرات لامبالية تمّر فوق رؤوس المعزّين.

حرقة الأم (هيثم الموسوي)

زبدين ودّعت «شهيدَي لقمة العيش»

كامل جابر

«مع السلامة يا ميمتي، هالمرة سفرك طويل، الله معك يا حبيبي»، بهذه الكلمات المثقلة باللوعة والمطوقة بعويل النسوة والشقيقات، شيّعت والدة حيدر حسن مرجي ابنها الشاب (36عاماً)، إلى باحة الدار لتتركه في عهدة أصحابه ورفاقه الذين حملوا نعشه إلى ساحة بلدة زبدين.

إلى ساحة زبدين المزدحمة بوفود المعزين من رسميين وقوى أمنية ورؤساء بلديات ومختارين وأقارب الضحايا ورفاقهم، وأبناء البلدة المفجوعة باثنين من أبنائها المغتربين، وصل كذلك نعش أنيس مصطفى صفا، بعدما سُجي نحو ساعة في بيته، مرفوعاً على أكتاف ابنه علي، وأشقائه وأقاربه. التقى نعشا الضحيتين في الساحة، بعدما كانا مترافقين على متن الطائرة، حتماً «كانا جنباً إلى جنب» يقول أحد الأقرباء. بعدها سُجي الجثمانان على طاولتين وسط الساحة، وأمّ الصلاة عليهما السيد كاظم إبراهيم والمفتي السيد علي مكي وإمام مدينة النبطية المفتي الشيخ عبد الحسين صادق وحشد من رجال الدين.

وسط عويل شقيقة أنيس التي تتمنى رؤيته «للمرة الأخيرة»، ها هي ثلة من عناصر قوى الأمن الداخلي تقدم التحية والسلاح، وتعزف فرقة الموسيقى فيها نشيد الموتى، وعلى إيقاع الحزن ترافق النعشان محمولين على الأكتاف نحو جبانة البلدة، القريبة من الساحة.

في مقدمة الموكب، حمل المشيّعون صورة كبيرة للضحيتين صفا ومرجي كتب عليها «شهداء لقمة العيش»، وأكاليل باسم الرؤساء الثلاثة ميشال سليمان ونبيه بري وسعد الحريري.

بعدها تقبّل ممثل الرؤساء النائب هاني قبيسي مع ذوي الضحيتين التعازي من المشاركين في التشييع.

ولفت النائب محمّد رعد، ممثلاً حزب الله وأمينه العام، بعد تقديمه التعازي لذوي الضحيتين «اللذين نعتبرهما شهيدين مجاهدين، من أجل الكد على عيالهما لتأمين عزة هذا الوطن وكرامته»، إلى أن «هذه الحادثة التي حلت بلبنان هي من الحوادث النادرة التي شهدها هذا البلد، ومثل هذه الحوادث تتطلب جهوزية ومستلزمات تقنية عالية، قد لا تكون البلاد مستعدة لها الاستعداد الكافي، وهذا ما يؤخر في عملية البحث وكشف حقيقة ما حصل».

تقدّم المشيعين ممثل الرؤساء الثلاثة النائب هاني قبيسي، والنواب ياسين جابر، عبد اللطيف الزين، علي بزي، قاسم هاشم، حسن فضل الله، علي حسن خليل، العقيد الركن إبراهيم عبود ممثلاً قائد الجيش، العقيد علي هزيمة ممثلاً اللواء أشرف ريفي، محافظ النبطية محمود المولى، مسؤول لجنة الارتباط في حزب الله وفيق صفا، وحشد من الوجوه السياسية والحزبية والاجتماعية.

تشييع مرجي وصفا في زبدين أمس (الأخبار)

الزاخم غيّر وجهة سفره

ددد ـ **فريد بو فرنسيس**

لم يحجب صراخ الأم المفجوعة نجاح صليبا على ولدها طوني الياس الزاخم، سوى صوت صفارة الإسعاف التي أقلّت جثمانه من مستشفى القديس جاورجيوس في بيروت، إلى مسقط رأسه في بلدة دده الكورة. الثانية عشرة إلا ربعاً، تردّد في البلدة صوت جرس الكنيسة، وامتزج بصراخ الأم الثكلى «يا ولداه..لم أكن أنتظر هذا اللقاء». ينزل الجميع من المنزل الذي يتوسط البلدة، الأم تترنح في مشيتها «لن تستطيع الوصول إلى الساحة وهي بهذه الحال» يقول أحد الأقرباء، طالباً من أحد الشباب «أحضر سيارة».

بكّر الأهالي بالخروج لملاقاة الشاب الذي أحبوه، وعمّ الحزن البلدة. رايات الحرير البيضاء تغطي طرقاتها العامة وصولاً إلى الكنيسة، والأعلام السوداء منتشرة على الأعمدة، فيما ألصقت صور طوني على الجدران، النساء متّشحات بالسواد، وأكاليل الزهر غطّت مدخل منزل العائلة، الذي كان الابن البكر جورج قد وصله آتياً من نيجيريا، ليشارك في الوداع الأخير لأخيه. على صوت قرع الأجراس ووسط نثر الأرزّ والزهر على النعش، استقبلت بلدة دده بأهلها وأحزابها وتيّاراتها، فقيدها المهندس ابن الـ34 ربيعاً، العائد ليرقد في ترابها إلى جانب والده. الموكب شقّ طريقه بصعوبة بالغة وسط المحتشدين، يتقدّمهم الكهنة وأهل الفقيد. في المنزل، يسيطر الحزن «طوني كان صديقاً للكبير والصغير، الله يساعد «إمّو»، إنها خسارة لا تعوض». يقول الجيران.

مشهد الأمّ لا يوصف: «إنها منهارة»، تشد بيديها الاثنتين على آخر ما تركه لها طوني، «سترة أعطاها إيّاها خلال الوداع الأخير، لكونه «لا يحتاج إليها في الكونغو حيث الطقس حار دائماً». تضمّها تارة، وتشمّها تارة أخرى لعلّها ترتوي من رائحتها. وعندما سُمح لها بالدخول لتكون إلى جانبه وجدت تابوتاً خشبياً مقفلاً ارتمت عليه، وبدأت تقبّله وتتفحّصه لعلّها تلقي نظرة على ولدها ولو لمرة أخيرة قبل أن يرحل عنها بعيداً إلى غير رجعة. حنّا، عمّ الفقيد يقول مهموماً: «لا معنى لحياتها بعد اليوم».